بسم الله الرحمن الرحيم

موجودٌ...تساوى فيه الناس

الحمد لله.

شيء موجود لكنك لا تستطيع شراءه، ومعدود لا تملك ادخاره، مع أنه رأس مال الفقير والغني، هو ملكك ومع ذلك يفرط فيه أكثر الناس، الصغير والكبير، والملك والمملوك؛ لا يملك أحد منهم في اليوم أكثر مما يملكه الآخر، فهم متساوون فيه، إنه الوقت، الذي سينتهي مهما طال بك الزمن حلوُه ومرُّه.

ذلك الشيء العجيب الذي تتغير صورته في نفوسنا؛ فساعة الانتظار تبدو طويلةً ثقيلةً، وساعة الفرح تمر كأنها لحظة، وأيام الحزن تكاد لا تنقضي، بينما تمر سنوات العمر سريعًا حتى يلتفت الإنسان فجأة فيجد أن ما كان يراه مستقبلاً بعيدًا قد أصبح ماضيًا لا يعود.

ولو سأل الإنسان نفسه: ما أثمن ما أملك؟ لربما عدّد أمواله وممتلكاته وشهاداته وعلاقاته، لكنه يغفل عن

الحقيقة الكبرى، وهي أن أثمن ما يملك في الحقيقة هو عمرُه؛ لأن كلَّ ما سواه يمكن أن يعوض إلا الزمن، فإذا مضت لحظة منه فلن تعود أبدًا.

ولهذا لم يكن عجيبًا أن يقسم الله تعالى بالزمان في كتابه الكريم، وأن يجعل العمر حجةً للإنسان أو عليه، وأن يسأل العبد يوم القيامة عن عمره فيما أفناه، لأن الوقت ليس مجرد ساعات تتعاقب، بل هو مادةُ الحياة نفسِها.

الوقت رأس مال طالب العلم

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه

وأراه أسهل ما عليك يضيع

وهذا البيت يصور حال كثير من الناس؛ فالكل يعلم أن الوقت نفيس، ولكن أكثر الناس يفرطون فيه تفريطًا عجيبًا.

الوقت نعمة من نعم الله

والوقت نعمة عظيمة من نعم الله، وقد امتن سبحانه

به في كتابه فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، وهل الوقت إلا ليلك ونهارك؟ وهل العمر إلا أيامًا تمضي من زمانك؟ ثم إن هذه النعمة ليست نعمةً مجردة، بل هي حجة للعبد أو عليه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.

مسؤولية الإنسان عن عمره

عن أبي برزة الأسلمي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه**» [1].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله حتى بلغه ستين سنة**».

خير الناس من أحسن استثمار عمره

ولذلك من هو أفضل المعمرين؟

فقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من خير الناس؟» فقال:

---

(١) رواه أحمد.

«من طال عمره وحسن عمله».

فليس المقصود مجرد طول العمر، وإنما استثمار هذا العمر فيما يقرب إلى الله، ومن هنا نفهم عظمة توجيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل»، فالفسيلة لن تنبت قبل قيام الساعة، وغارسُها لن ينتفع بها، ومع ذلك أُمر بغرسها؛ لأن المقصود أن يلقى العبدُ ربَّه وهو عامل محسن.

ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». ولاحظ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل: «**الصحة والوقت**»، وإنما قال: «**الصحة والفراغ**»؛ لأن الوقت يملكه كل أحد، أما الفراغ فلا يملكه كل أحد، فكم من صحيح الجسم لا يجد فراغًا، وكم من صاحب فراغ لا يحسن استثماره. ولذلك كان الغبن الحقيقي في إضاعة تلك الساعات التي تتهيأ فيها للإنسان أسبابُ العمل والإنجاز، وقال النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**الصحة والفراغ**» لأنه ليس كل الناس يفسدهم السوء، بل كثير منهم يفسدهم الفراغ.

وما سُمِّي الفراغ فراغًا إلا لأنه إذا خلا من الحق امتلأ بغيره؛ فالنفس لا تبقى معطلة، فإن لم تُشغلها بما ينفع شغلتك بما يضر.

والعجيب أن كثيرًا من الناس يشكون من ضيق الوقت، بينما مشكلتهم الحقيقية ليست قلة الوقت، بل تشتت الانتباه. فالوقت متساوٍ بين الناس، لكن التركيز ليس كذلك. وقد يجلس الإنسان ساعةً كاملة أمام عمله، ثم لا ينجز فيها ما ينجزه غيره في دقائق؛ لأن ذهنه يتنقل بين المشتتات والخواطر والإشعارات. ولهذا فإن معركة هذا العصر ليست مع الوقت وحده، بل مع القدرة على حفظ الانتباه وصرفه فيما ينفع.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**الصحة والفراغ**»، لأن الفراغ أرض خصبة للوساوس، وإذا خلا الإنسان بنفسه اجتمع عليه الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى، فتنازع

قلبه وتشتت فكره. أما إذا امتلأت حياته بهدف ورسالة وعمل نافع، ضاق الوقت عن كثير من الشرور والتفاهات.

والإنسان صاحب الرسالة يشبه سيارة الإسعاف؛ يعرف وجهته فلا يتوقف عند كل مشهد أو خصومة، وكذلك من عرف هدفه في الحياة لا يبدد عمره في كل ما يمر به، بل يمضي نحو غايته.

ومن أكبر أوهام هذا العصر أن بعض الأشخاص يظن أن السعادة في الراحة المطلقة، والحقيقة أن كل إنجاز عظيم وراءه قدر من المشقة. فطلب العلم فيه مشقة، والزواج فيه مسؤولية، وتربية الأبناء فيها تعب، وبناء المشاريع فيه قلق وتحديات. لكنه تعب مثمر يعقبه نمو وسعادة وطمأنينة.

أما الهروب من كل مشقة، والبحث الدائم عن الراحة، فلا يورث صاحبه الراحة الحقيقية، بل يقوده إلى فراغ قاتل، وتوحدٍ موحش، وضعفٍ في المعنى والقيم، حتى يصبح أثقلُ ما يواجهه الإنسان هو نفسُه.

ولهذا كان السلف الصالح أبعد الناس عن الفراغ، وأشدهم حرصًا على استثمار أعمارهم فيما ينفعهم عند الله، حتى أصبحت دقائقُ أوقاتهم عندهم أنفسَ من الذهب والفضة.

لذلك لم يكن أخطر ما يواجه الإنسان أن يجد عملاً كثيرًا، بل أن يجد وقتًا كثيرًا بلا رسالة يحملها، ولا هدف يسعى إليه، ولا عمل ينفعه في دنياه أو أخراه.

كيف فهم السلف قيمة الوقت؟

إذا أردنا أن نعرف كيف يكون استثمار الوقت حقاً، فلننظر إلى أحوال السلف.

جابر بن عبد الله وحديث واحد

رحل جابر بن عبد الله رضي الله عنه مسيرة شهر كامل إلى عبد الله بن أنيس ليسمع منه حديثًا واحدًا.

البخاري وتقييد الفوائد

ويذكر بعض أصحاب الإمام البخاري رحمه الله أنه بات عنده ليلة، فعدّ قيامه من نومه نحو ثماني عشرة مرة.

فكلما خطر له شيء أو فائدة قام فأوقد السراج وكتبها؛ خشية أن تضيع.

بيننا وبينهم

إن الناظر في هذه النماذج يدرك أن الفرق الحقيقي بين كثير من الناس وبين أولئك الأعلام ليس فرق الذكاء، وإنما هو فرق في تصور قيمة الوقت.

لقد كانوا يرون كلَّ ساعة فرصةً للتزود للآخرة، ويرون العلم عبادة، ويرون دقائق أعمارهم رأسَ مال لا يجوز التفريط فيه.

ولهذا امتلأت صحائفهم بالعلم النافع والعمل الصالح، وبقي ذكرهم بعد قرون طويلة.

ومن أعظم ما يميز هذا العصر أن أسباب تحصيل العلم أصبحت أقرب من أي وقت مضى؛ فالمكتبات بين يدي الإنسان، والدروس تصل إليه في بيته، والكتب التي كان العلماء يرحلون الشهور لنسخها أو سماعها أصبحت تُحمَّل في دقائق معدودة. ومع ذلك يشكو كثير من الناس

من قلة التحصيل، وما ذاك إلا لأن المشكلة لم تعد في فقد الوسائل، بل في فقد التركيز وحسن استثمار الوقت.

خاتمة

إن الوقت هو الحياة نفسها، ومن ضيع وقته فقد ضيع عمره، ومن حفظ وقته فقد حفظ رأس ماله الحقيقي.

وما أحوج طالب الجنة إلى أن يستشعر قيمة هذه النعمة، وأن يعلم أن ما يبلغه من المكانة والفضل إنما يكون بقدر ما يبذله من عمره وجهده ووقته.

نسأل الله سبحانه أن يبارك لنا في أعمارنا، وأن يعيننا على اغتنام أوقاتنا فيما يرضيه، وأن يرزقنا حسن الاقتداء بالصالحين من عباده، والحمد لله رب العالمين

وكُتِبَ في ٢٦/ ١٢ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد